الدرس الأول: ماهية النثر

تمهيد..

أطلق القدماء على النثر؛ مصطلحات عديدة منها: المنثور، الكلام، الكتابة، وهي مصطلحات غير دقيقة لاستيفاء التعريف التام. بالتعريف البسيط؛ يكون النثر هو ذلك الكلام المُرْسَل الذي لا تقيده أوزان النظم المعروفة في الشعر العربي؛ والمتمثّلة في علم العروض بشكلٍ عام. ومن ثمّ؛ فالمنظوم ؛ عكس المنثور؛ إذْ كل واحد منهما؛ يُشكِّلُ جنساً أدبياً خاصّاً.

جاء في كتاب "البرهان في وجوه البيان" لأبي الحسين بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، أثناء تعريفه للنثر: « ... فأما المنثور؛ فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو ترسُّلاً، أو احتجاجاً، أو حديثاً، ولكل واحد من هذه الوجوه ؛ يُستعمل فيه.» ويقول أيضاً: « اِعْلَمْ أنّ سائر العِبارة في لسان العرب؛ إمّا أن يكون منظوماً أو منثوراً والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام.»

النثر ومسألة الأسبقية والأفضلية:

من باب المنطق؛ يجب النظر إلى "النثر" على أنه "إضافة فنية"؛ لمْ تأْتِ لتنافس الشعر، وإنما لتغني الأدب العربي بشكلٍ عامّ؛ من حيثُ طرق التعبير، واختلاف وجهات النظر. حول الكون والحياة ونواميس الوجود... هناك مَنْ فضّل النثر؛ واعتبره الاسبق في الظهور، بمعنى؛ اعتبره هو "الأصل" ، ونموذج ذلك: أبوالقاسم الإشبيلي صاحب كتاب: "احكام صنعة الكلام".

حسب ا"بن رشيق المسيلي" وأستاذه "عبد الكريم النهشلي"؛ فإن الكلام العربي؛ كان في أول أمره منثوراً؛ وأنّ سببيْن اثنين؛ دفعا العرب إلى نظم الشعر، هُمَا:

- حاجة العرب إلى التغني بمكارمهم وأمجادهم... فالإنشاد هو الوحيد الذي يستطيع أن يحافظ على هذه المكارم، لتميّزه بالإيقاع الفني.

- أنّ المنثور كان يفلت منهم؛ ويضيع فلا تحفظه ذاكرة...

وفي المقابل؛ نجد من يقول بأن : « الشعر مظهر الوجدان، والنثر مظهر العقل والثقافة.» ولذلك؛ يكون الشعر أسبق في الظهور من النثر الفني؛ لأنّ الشعر يقوم على الخيال والعاطفة، و"الخيال" أسبق في الوجود من التفكير والمنطق..

بلاغة النثر حسب أبي حيان التوحيدي صاحب "الإمتاع والمؤانسة": « وأما بلاغة النثر؛ فأنْ يكون اللفظُ متناوَلاً، والمعنى مشهوراً، والتّهذيبُ مُسْتَعْمَلاً، والمراد سليماً، والرّونق عالياً، والحواشي رقيقة...»

أ- عبد الحميد الكاتب صاحب : "رسالة إلى الكتَّاب"

يمكن اعتبار هذه الرسالة ؛التفاتة نقدية هامة في مسيرة الدرس العربي النقدي القديم؛ القائم على الذوق الجمالي في بنية الكلام، وثراء المضمون بسُموِّ المَعَاني، (أيْ ما أُتفق عليه؛ بـ: المعنى الشريف) من جميل ما يقوله "عبد الحميد الكاتب" في اشتراط جماليات صنعة الكتابة: « ...فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب (....) ثمّ أجيدوا الخطّ فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم (...) ونزّهوا صناعتكم عن الدناءات، واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهل الجهالات، وإياكم والكِبْرَ والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة، من غير إحْنة، وتحابوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم، وتواصوا عليها، بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل، من سلفكمْ.» يتضح أن الكتابة في مفهوم عبد الحميد؛ هي صناعة بالدرجة الأولى، لذلك تقتضي هذه الصناعة توازنا في الجماليات البنائية والمعنوية.

يُعظِّمُ النقاد العرب منزلة عبد الحميد الكاتب في الأدب العربي، فيقولون: "بُدِئَتِ الكتابةُ بعبد الحميد، وخُتِمَتْ بابن العميد". لقّبهُ الجاحظ في كتابه: "البيان والتبيين" ؛ بـــ: عبد الحميد الكاتب أو الأكبر.

عبد الحميد بن يحيى، مولى العلاء بن وهب القرشي، من أعلام الكتابة في القرن الثاني للهجرة، فارسي الأصل، عربي الولاء، نشأ في الأنبار أو في الشام؛ باختلافٍ في الروايات. تعلم اللغة العربية وبلاغة العرب، صاحب لسانٍ سلس، وذكاء خصب، أفلح في تصوير المعاني تصويراً بارعاً، لذلك أُعْتُبِر شيخ الكُتّاب، وإمام المُنشئين، والمترسِّلين في الأدب العربي. عمل في ديوان الرسائل، في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثمّ عمل كاتباً لمروان بن محمد؛ والي أرمينيا وأذربيجان، فكاتباً أوَّلَ للدولة الأموية أيام مروان بن محمد، إلى أن قُتِلَ مع الخليفة على يد العبّاسيين. كان يُفصِّلُ جُمَله تفْصيلاً ويُزيّنها بالسّجْع، فارتفعتْ على يديْهِ صناعة الكتابة وهو الذي طوّر الرسائل العربية باستعماله الغزير للتّحْميدات في صدر الرسائل مع التوسع في المعاني وترتيبها ووضوحها.

من أهمّ رسائله؛ رسالة الشطرنج، وتلك الرسالة التي بعث بها إلى أهله وهو منهزم مع مروان، أختار منها هذا المقتطف: « أما بعد؛ فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور، فمَنْ ساعده الحظ فيها؛ سكن إليْها، ومَنْ عضَّتْه بنابها؛ ذمّها ساخطاً عليْها، وشكاها متزايداً عليْها، وقد كانتْ أذاقتْنا أفاويقَ استحليناها؛ ثمّ جمحتْ بنا نافرة، ورمحتْنا مُوَلِّيَة، فملُح عذبها، وخشن ليّنُها، فأبعدتْنا عن الأوطان، وفرّقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة...»

تأثّر الكتّاب بأسلوبه من حيث: إطالة الرسائل، التوسّع في أغراضها، فبينما كانت بعض الأغراض خاصة بفنّ الشعر؛ دخلتْ على يد عبد الحميد الكاتب إلى مضمار النثر؛ ومن بين هذه الأغراض: التعزية، التهنئة، النُّصْح، الوصف وغيرها.

ب- الجاحظ في الدرس النقدي العربي القديم

امتاز الجاحظ بممارسة نقدية عميقة؛ ظهرت من خلال آرائه المتناثرة في الكتب والرسائل التي صاغها وفقاً لأغراض ومواقف متنوّعة أثناء معالجته

لمختلف الموضوعات المعرفية. من ذلك مثَلاً أنه كان يستفتح الأخبار المغلوطة أو الأسطورية، بقوله: زعم فلان... أو زعموا... ثمّ يُعقِّبُ بتحليله؛ مُمْتِطياً صهوة العقل الرّاجِح والأسْلوب السهل؛ فدعا من خلال ما كتب؛ إلى تحرير الأسلوب من الجمود والصنعة، وكان كتابه : "البيان والتبيين" مِنْبراً لاِستقطاب مفهوم الدلالة على المعنى والالتزام بشرط الوضوح في العملية الكتابية.

حاول الجاحظ أن يبني نقده على أساس الذوق السليم والابتعاد عن الصنعة الممجوجة، فقرَّبَ – على رأي أحد النقاد – "النثر من الحياة، وحمّلَهُ همومها، وأصبحت اللغة مع الجاحظ؛ تحمل نبض الحياة والناس، وتعيش قضاياهمْ..."

يذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين: « ... وقال تبارك وتعالى: وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليُبيِّنَ لهمْ. » سورة إبراهيم، الآية 04. لأنّ مدار الأمر؛ على البيان والتبيين؛ وعلى الإفهام والتفهيم، وكلما كان اللسان أبينَ؛ كان أحمدَ، كما أنه كلما كان القلب أشدّ استبانةً؛ كان أحْمَدَ. والمُفهِّمُ لكَ والمتفهّمُ عنك؛ شريكان في الفضلِ، إلّا أنّ المُفَهِّم؛ أفضل من المتفهّم، وكذلك المُعَلّم والمتعلّم..»

يتابع الجاحظ درسه النقدي في مواضع أخرى؛ فيقول: « متى شاكل اللفظ معناه، وكان لذلك الحالِ وفقاً؛ وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلّف؛ كان قميناً بحسن الموقع. ومتى كان اللفظ كريماً في نفسه؛ مُتَخَيّراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبِّبَ إلى النفوس، واتّصل بالأذهان، وهشّتْ له الأسماع، وارتاحتْ له القلوبُ، وخفَّ على ألسنة الرّواةِ وشاع في الآفاق ذِكْرهُ وعظُمَ في الناس خطرهُ.»

ويتعمّقُ في تحديد كيفية نبوغ الكاتب؛ فيقول: « ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي اللسان، عذب ينابيع البيان، إذا حاور يُسَدِّدُ سهم الصواب إلى غرض المعنى، لا يُكلّم العامة بكلام الخاصّة، ولا الخاصة بكلام العامّة.»

صنّف الجاحظ كتابه "البيان والتبيين"؛ وقدمه هدية لـ: "أحمد بن أبي دؤاد" يقول: « أهديْتُ إلى محمد بن عبد الملك؛ كتاب الحيوان، فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديْتُ كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد؛ فأعطاني كذلك، وأهديتُ كتاب الزرع والنخل؛ إلى إبراهيم الصولي، فأعطاني مثلها، فرجعْتُ إلى البصرة؛ ومعي ضيْعَةٌ؛ لا تحتاج إلى تحديد ولا إلى تسميد..»

يُعْرَف الجاحظ بـ: "الحِدَقي" بسبب نتوء في حدقتيْهِ. عاش في العصر العباسي؛ فمولده: 159هـ ووفاته: 255هـ. أخذ علم العربية وآدابها على أبي عبيدة صاحب كتاب: "نقائض جرير والفرزدق" والأصمعي صاحب "الأصمعيات" وأخذ النحو على يد الأخفش، كما أخذ علم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النّظّام البصري. بالإضافة إلى الثقافة العربية؛ اهتم الجاحظ بالفارسية واليونانية والهندية عن طريق قراءته للأعمال المترجمة. في بغداد تصدّر للتدريس؛ وتولّى ديوان الرسائل عهد الخليفة المأمون. التحق بحلقات العلم المسجدية؛ ووصل به ذكاؤه الحاد إلى المشاركة في العديد من المناقشات التي كانت تجري بين علماء علم الكلام.

موقف الجاحظ من النثر: يقول ممهّداً لعرض رأيه: « ..وقد نُقِلت كتب الهند وتُرْجِمتْ حكم اليونانية، وحُوِّلتْ آداب الفرس، فبعضها ازداد حُسْناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولوْ حُوِّلتْ حكمة العرب؛ لم يجدوا في معانيها شيئاً لمْ تذْكُرْهُ العَجم في كتبهم؛ التي وُضِعَتْ لمعاشهم وحكمِهِمْ، ولَبَطُلَ ذلك المُعْجِز، وقد نُقِلتْ هذه الكتب من أمّة إلى أمّة، ومن قرْنٍ إلى قرْنٍ، ومن لسان إلى لسانٍ، حتى انتهتْ إليْنا. وكنّا آخر مَنْ ورثها، ونظر فيها، فقد صحَّ أنَّ الكتبَ؛ (أي كتب النثر) أبْلَغُ في تقييد المآثر من الشعر. » كتاب الحيوان، ج01 /75